4

الإيمان

فى مطلع عام ٧٠م حاصرت الجيوش الرومانية القدس. كانت مملكة يهودا قد ظلت مُستسلمة تحت الاحتلال الرومانى، ثم فجأة تفجر الاستياء المكبوح فى ثورة عارمة عام ٦٦م. لم يكن القادة اليهود يحظون بإجماع إذ إن كثيرا من اليهود اعتقدوا أن من الحماقة مواجهة قوة روما. لكن مجموعة راديكالية من «الزيلوت» المتحمسين المتعصبين تغلبت على المعتدلين نظرا لاقتناعهم أن روما كانت فى حالة تدهور وأنه كانت ثمة فرصة جيدة لنجاح اليهود. كان القائد الرومانى اللامع فسبسيان قد تمكن مَنْهجيا، وطوال سنوات ثلاث، من هزيمة جيوب المقاومة فى الجليل بشمال فلسطين حتى عام ٧٠م حينما أصبح إمبراطورا وعاد إلى روما، وترك لابنه تيطس مهمة محاربة اليهود.

وبحلول شهر مايو، كان تيطس قد اخترق الجدار الشمالى للقدس، وعلى الرغم من ذلك، لم يستسلم اليهود. وحينما شق جنود جيش تيطس طريقهم إلى الساحات الداخلية للمعبد المهيب الذى كان هيرود قد شيده (حوالى ٧٣ أو ٧٤ ق م) وجدوا ستة آلاف من الزيلوت على استعداد للقتال حتى الموت دفاعاً عن معبدهم. قاتلوا بشجاعة كبيرة، وحينما اشتعلت النيران فى المعبد، صدرت عنهم صيحات رعب رهيبة. دفع بعضهم بأنفسهم على سيوف الرومان، فيما ألقى البعض بأنفسهم فى النيران.

وحينما دُمِّر المعبد، استسلموا لدرجة أنهم لم يأبهوا بالدفاع عن باقى المدينة من القلاع الأخرى الغربية أو بمحاولة استعادتها. وقف معظم الناجين بلا حراك، وهم يشاهدون عاجزين جنود تيطوس يهدمون ما تبقى من المبانى. كان اليهود قد فقدوا معبدهم قبل ذلك، لكن هذه المرة، لم تقم له قائمة مرة أخرى.

كان قد حدث أثناء السنوات المؤدية للحرب أن ظهرت توجهات دينية متنوعة تبنتها طوائف عديدة اعتقد كل منها أنه الصوت الحق لليهودية. كُتبت كتبٌ مقدسة جديدة. وعلى الرغم من جهود عزرا والإصلاحيين، فلم تكن قد تبلورت بعد أرثوذكسية (معتقدات موحدة) يهودية، حتى أن بعض الطوائف تحدثت عن إلغاء تنزيل سيناء أى التوراة والبدء من جديد. لكن الجميع كان مُتّفقا على

obeikandl.com

الأهمية القصوى للهيكل. كان البعض قد انتقد القائمين على مؤسسة المعبد، لكنهم شعروا أن الاحتلال الرومانى كان السبب فى فسادهم. تباعد نساك قمران وفرقة الإسينيين عن الطوائف الأخرى، لكنهم تطلعوا إلى معبد جديد يبنيه الرب بعد أن يهزم الأشرار. وإلى أن يحدث هذا، تصبح مجموعاتهم ضريحا رمزيا ويلتزم أعضاؤها بقوانين الطهارة. كان الفريسيون (تعنى بالعبرية «المنعزلون») يلتزمون بقوانين الطهارة ويؤدون شعائر المعبد فى بيوتهم أيضا، كانت روحانيتهم تتمحور حول معبد تخيلى افتراضى، وكانوا يحاولون تسيير حياتهم كلها وكأنما هم يقفون، حرفياً، أمام الشكينة shek-hinah أو الحضور الإلهى فى قدس الأقداس. كان للمسيحيين، الذين اعتقدوا أن عيسى الناصرى هو المسيح، تحفظات على المعبد، لكنهم رغم ذلك

كانوا يشاركون اليهود فى الطقوس. وعلى الرغم من أن الرومان صلبوا عيسى حوالى عام ٣٠م، إلا أن حوارييه اعتقدوا أنه قام من قبره وسيعود فى كامل مجده ليقيم مملكة الرب. وحتى حدوث ذلك، عاشت القيادات المسيحية بالقدس متوقعين قدومه، ومارسوا عبادتهم بانتظام بالمعبد كجماعة دينية.

أحدث تدمير المعبد صدمة فى جميع أنحاء العالم اليهودى. بقيت طائفتان فقط من تلك التى كانت قد تنامت أثناء زمن المعبد الثانى بعد تلك الكارثة. كان الحاخام يوهانان بن زاكاى، قائد الفريسيين قد تمكن، قرب نهاية الحصار، من أن يجعل أشخاصاً يُهرّبونه خارج المدينة فى نعش وذلك كى يتجنب الزيلوتيين لدى البوابات. وبمجرد أن غادر المدينة وجد طريقه إلى معسكر الرومان وطلب إذن الإمبراطور كى يستوطن ومنعه مجموعة من الباحثين فى بلدة يفنة yavneh جنوبى القدس. وبعد سقوط المدينة، تجمع فريق من الكتبة والكهنة والفريسيين هناك تحت قيادة يوهانان وتلميذيه اليعزر ويشوع، وبدأوا المهمة البطولية لتحويل اليهودية من عقيدة تتمحور حول المعبد إلى ديانة ترتكز على كتاب مقدس كى تحل التوراة محل قدس الأقداس ودراسة الإنجيل محل الأضحيات الحيوانية. لكن الفريسيين فى السنوات الأولى التالية للكارثة وجدوا صعوبة فى تقبل أن المعبد قد اختفى إلى الأبد وبدأوا فى جمع كل التقاليد القديمة والحفاظ عليها كى يكونوا مستعدين للمعبد الجديد واستئناف الشعائر هناك.

كان الحاخام يوهانان وزملاؤه ينتمون إلى فرع من حركة الفريسيين أكثر مرونة. كان أساتذته قد تتلمذوا على يد هيلل Hillel (حوالى ٨٠ ق م إلى ٣ م) الذى كان قد أكد على أهمية روح القانون الموسوى لا حرفيته. قيل فى قصة تلمودية شهيرة، إن هيلل صاغ نسخة يهودية من قاعدة كونفوشيوس

الذهبية. حينما وعَد رجلٌ وثنى هيلل أن يعتنق اليهودية إذا استطاع هيلل أن يعلمه التوراة كلها وهو يقف على ساق واحدة أجابه هيلل «لا تفعل بالآخرين ما تكره أن يفعلوه بك. هذه هى كل التوراة، والبقية مجرد تعليقات وتفسيرات. اذهب وادرسها». كان هذا تأويلا جريئاً مُستَفزا. لم يذكر هيلل أيًّا من التعليمات التى كانت تعتبر مركزية للديانة اليهودية – وحدة الرب، خلق العالم، الخروج، سيناء، وصايا التوراة الستمائة وثلاث عشرة، أو أرض الميعاد. رأى أن جوهر التعاليم اليهودية هو الرفض المنظم الإرادى لإنزال الألم بالآخرين، أما ما عدا ذلك فهو مجرد تفسيرات.

كان الحاخام يوهانان قد استوعب هذا الدرس. وحينما كان الحاخام يشوع، بعيد تدمير القدس، يسير هو ورفاقه ويشاهدون مبانى المعبد المحطمة، ولا يستطيعون احتواء عويلهم وبكائهم، كان الحاخام يوهانان يطلب بهدوء ألا يحزنوا لأن لديهم ما يعوضهم عن المعبد ألا وهو أفعال المحبة حيث يقول الرب «أرغب فى الحب لا فى الأضحيات». سيحل الحنان محل طقوس المعبد، ويكون التراحم، الذى هو أحد الأعمدة التى يقوم عليها العالم، هو مهمة الكهنة الجديدة أيضا، قال إن التراحم هو مفتاح تأويل الكتاب المقدس، وكما كان هيلل قد بيّن، فإن بقية محتوى التوراة هو مجرد تعليقات – هوامش – على القاعدة الذهبية. كان لدى الباحثين سلطة كشف جوهر التراحم الذى يكمن فى عمق التشريعات والقصص الإنجيلية – حتى لو كان هذا يعنى لىَّ معنى النص الأصلى. وبهذه الروح، أصر الحاخام أكيفا، خليفة يوهانان على أن المبدأ الأساسى للتوراة هو «أحب جارك كما تحب نفسك». لكن أحد الحاخامات لم يوافق على هذا وفضل الجملة البسيطة التالية مبدأ أساسيا لها «هذا كتاب كل نسل آدم» لأنها تبين وحدة الجنس البشرى بأكمله.

بلغ دين إسرائيل، مع اليهودية الحاخاماتية، سن الرشد، بتطويره نفس المبادئ التراحمية مثل الموروثات الشرقية الأخرى. اعتبر الحاخامات أن كراهية أى إنسانٍ صُنِع فى صورة الله ترقى إلى مرتبة الإلحاد، من ثم، رأوا أن القتل ليس مجرد جريمة ضد الإنسانية بل كفرا بالله: لأن الكتاب المقدس يعلمنا أن من يريق دماءً بشرية يقلّص حجم الصورة المقدسة. لقد خلق الله فردا واحدا فى البداية ليعلمنا أن قتل نفس واحدة يعادل إبادة العالم بأكمله، وبالعكس، فإن إنقاذها يخلص الإنسانية جمعاء. إن إذلال أى شخص حتى ولو كان عبدا أو من الأغيار هو طمسٌ كافر لصورة الله وإنكار لوجوده. رأوا أن أى تأويل للكتاب المقدس ينتج عنه الكراهية أو احتقار الآخرين، أمر غير مشروع على حين أن التأويل الجيد هو ذلك الذى يبذر المحبة ويبدد الفُرقة والنزاعات. أوضح الحاخام مائير أن من يدرس الكتاب المقدس كما يجب يمتلئ حبًا، يحب الحضور المقدس Shekhinah، وكل المخلوقات، ويُدخل السرور على الحضور المقدس وعلى كل المخلوقات.

استمر الحاخامات فى استخدام تعبيرات مثل «البهاء Kadov» و«الحضور المقدس Shekhinah» و«الروح ruach» كى يميزوا بين خبرتهم الأرضية بالله، المحدودة بطبيعتها وبين الحقيقة التى لا يمكن التعبير عنها. جعلت تدريباتهم الروحية المقدس واقعا نابضا حاضرا. كان تأثير التأويل عليهم مثل تأثير اليوجا على البوديين والهندوس، لم تكن الحقيقة التى سعوا إليها مجردة أو نظرية، بل تُستَمدّ من ممارسة التدريبات الروحية. كانوا، لكى ينقلوا أنفسهم إلى حالة وعى مختلفة، يصومون قبل أن يقربوا النص المقدس، ويضعون رءوسهم بين ركبهم ويسبحون الله همساً. وجدوا أنهم حينما كان اثنان أو ثلاثة منهم يدرسون التوراة معاً، يغمرهم حس بوجود الحضور

الإلهى بينهم. وذات يوم، وفيما كان الحاخام يوهانان يدرس التوراة مع تلاميذه، بدت الروح القدس وأنها قد هبطت عليهم فى هيئة نار أو ريح مندفعة. وفى مناسبة أخرى، سمع الحاخام أكيفا أن تلميذه بن عازاى كان يشرح التوراة وكانت هالة من النار الوامضة تحيط به. أسرع لتحرى الأمر متسائلا عما إن كان بن عازاى يحاول هروبا روحيًّا خطيرا إلى عرش الله؟ أجابه بن عازاى بالنفى وقال له: «إننى فقط كنت أربط كلمات التوراة ببعضها، ثم بكلمات الأنبياء وكلمات الأنبياء بالكتابات، وابتهجتْ الكلمات مثلما كان حالها حينما نُزّلتْ على جبل سيناء، وغدت حلوة كما كانت لدى أول نطق بها». وكما كان عزرا قد بين منذ وقت طويل، فالكتاب المقدس ليس كتابا مغلقا، والتنزيل ليس واقعة تاريخية بعيدة. كان يتجدد كل مرة يواجه فيها اليهودى النص، ويفتح نفسه عليه، ويُطبقه على وضعه الخاص. أسمى الحاخامات الكتاب المقدس (التوراة) «المِقرا miqra». لأنها كانت دعوة للفعل. لم يكن التأويل يعتبر مكتملا حتى يجد المُؤَوِّل حكما عملياً جديدا يستجيب لاحتياجات المجموعة الملحة.

على أى شخص يتخيل أن الدين المنزل يقتضى التمسك الجبان بحقيقة ثابتة بدهية لا يمكن تغييرها عليه بقراءة الحاخامات. كان «التأويل أو التفحص midrash» (كلمة عبرية مشتقة من darash يدرس، يبحث، أو يتقصى) يقتضى منه التقصى والسعى إلى بصيرة جديدة. لم يستخدم الحاخامات التوراة القديمة للتقوقع فى الماضى، بل كى تدفعهم إلى مجالات عدم اليقين فى عالم ما بعد المعبد. ومثل الفلاسفة الهلنستيين، بدأ اليهود فى تشييد «بريكولاچ brico lage» (انظر شرح التعبير سابقا) فكرى بإعادة تأويل إبداعية للنصوص القديمة الموثوقة من أجل الدفع بالموروثات قدُما.

لكنهم كانوا بالفعل قد تحركوا تلقائيا باتجاه بعض المبادئ العظيمة التى ألهمت الموروثات الكبرى لتجد معنى وسط مآسى الحياة. أكدوا هم أيضا على مركزية التراحم وكانوا يعملون على تطوير روحانية باطنية.

لكن أثناء فترة المعبد الثانى كان التأويل مسعى للأقلية. كان أمام الحاخامات عشرون عاما كى يحدثوا أثرا فى الجالية اليهودية الأوسع. لم يكن من السهل جعل دراسة النصوص ذات جاذبية للجماهير. كيف كان لها أن تنافس طقوس المعبد الدرامية؟! لكن فى نهاية الثمانينيات والتسعينيات، وكما سنرى لاحقا فى هذا الفصل، أتى جهد الحاخامات الشاق بثماره، بيد أنه، فى السنوات الأولى بعد الكارثة، بدأت عبادة يهودية جديدة تحرز تقدما أكثر.

نظم المسيحيون أنفسهم بخطى أسرع. تمت كتابة الأناجيل الكنسية الأربعة الأولى إما قبيل تدمير المعبد أو بعده مباشرة. لا نعرف سوى أقل القليل عن الشخصية التاريخية لعيسى لأن جميع معلوماتنا مصدرها نصوص العهد الجديد التى لم تكن تهتم بدقة الوقائع كأولوية. يبدو أنه كان معالجاً كاريزميا يشفى المرضى وداعية إلى «اللاعنف ahimsa» أبلغ أتباعه أن يحبوا أعداءهم. ومثل غيره من أنبياء عصره، بشّر بوصول مملكة الرب الوشيك، ونظام عالمى جديد، يتدنى فيه شأن الأقوياء ويرتفع شأن المتواضعين والفقراء، ويُبعث الأموات الأتقياء من قبورهم، ويعبُد العالم أجمعه إله إسرائيل.

لا يبدو وأن عيسى كان قد جذب أتباعا كثيرين أثناء حياته. لكن هذا الوضع تغير فى حوالى عام ٣٠ م حينما ولأسباب ليست واضحة تماما – صلبه الرومان. أبصر حواريوه رؤى أقنعتهم أن الله قد بعثه من الموت تمهيداً لنهاية الزمان؛ كان هو المسيح، الذى سرعان ما سيعود فى بهائه ومجده

لإقامة مملكة الرب. أعد المسيحيون الأوائل أنفسهم لهذا الحدث الجلل بأن عاشوا حياة يهودية مكرسة، تشاركوا في جميع ممتلكاتهم وأعطوا الفقراء بسخاء. لم يكن لديهم نية إنشاء دين جديد، لكنهم التزموا بتعاليم التوراة، وتعبدوا بالمعبد، وحافظوا على أحكام الطعام. ومثل الفريسيين، اعتبروا «القاعدة الذهبية» مركزية فى الديانة اليهودية. استمروا فى التفكير بالرب بالأسلوب اليهودى التقليدى، ومثل الحاخامات، خبروا الروح القدس أى حلول الجوهر الإلهى، كقوة ملموسة غالبة صاعقة. حمل المبشرون المسيحيون «البشارة» إلى مناطق هامشية مثل السامرة وغزة، وأيضا أقاموا الإبراشيات فى الشتات، كى يضمنوا أن يكون اليهود جميعهم، حتى المذنبون، مُعَدِّين لمقدم مملكة الرب. أيضاً، اتخذوا خطوة غير معهودة تماما بأن سمحوا للأغيار بالدخول إلى جماعتهم. كان بعض الأنبياء قد تنبئوا أن الأمم الأجنبية ستشارك انتصار إسرائيل، وسيتنصلون، طوعا، من أصنامهم. وحينما اكتشف المسيحيون أنهم كانوا يجتذبون أتباعا من الأغيار، كثير منهم كانوا متعاطفين بالفعل مع اليهودية، تأكد اعتقادهم بأن النظام القديم كان فى طريقه إلى الزوال.

كان بولس أحد أكثر معتنقى هذا الرأى تأثيرا. كان يهوديا متحدثا باليونانية من طرسوس. انضم إلى الجماعة المسيحية بعد حوالى ثلاث سنوات من وفاة المسيح. تعتبر خطابات بولس والتى كتبت فى الخمسينيات والستينيات، من أولى الكتابات المسيحية الموجودة لدينا، وتوضح أن المسيحيين كانوا قد بدأوا يقومون بتأويل جذرى إبداعى للتوراة ولأسفار الأنبياء كى يبرهنوا على أن المسيح هو ذروة التاريخ اليهودى. كان بولس مقتنعا أن أتباعه الخليط من اليهود والأغيار كانوا الثمار الأولى لإسرائيل

الجديدة. كانت تلك مزاعم تبعث على الدهشة. فلم يكن ثمة شيء في التوراة، أو العهد القديم برمته، يوحي بمقدم مخلِّصٍ في المستقبل، سيصلب، ثم يبعث من الموت. من ثم، وجد الكثيرون الفكرة فاضحة غير مقبولة. بعد كارثة عام ٧٠م، رأى المسيحيون تدمير المعبد بصفته «كشفاً apokalypsis» عن حقيقة رهيبة. لقد ماتت إسرائيل القديمة. كان دانييل قد تنبأ بهذا، وكان إرمياه وأشعيا قد انتقدا طقوس المعبد وأصرا أن الله أراده مكانا للصلاة لجميع الشعوب. والآن أصبح على يهود إسرائيل الجدد أن يلتقوا الحضور المقدس shekhinah الذي كان قدس الأقداس يعتبر مستودعا له، في شخص عيسى، المسيح. مثّلت أسفار العهد الجديد السبعة وعشرون، التي اكتملت في أواسط القرن الثاني، جهدا بطوليا لإعادة تشييد إرث محطم. ومثل الحاخامات، استخدم المسيحيون أساليب تأويلية لتمكين اليهود من التحرك قدما. كان كتبة الأسفار الأربعة التي نسبت فيما بعد إلى متى، مرقس، لوقا، يوحنا مسيحيين يهوداً قرأوا الإنجيل في ترجمته اليونانية، وعاشوا في مدن الشرق الأدنى الهلنستية. كُتب إنجيل مرقس في حوالي عام ٧٠م، وإنجيل متى ولوقا في الثمانينيات، ويوحنا في نهاية التسعينيات. لم تكن الأناجيل سيراً لحياة عيسى بالمعنى الذي نقصده، بل الأحرى أنه يجب قراءتها كتعليقات مِنْ كتبتها على نصوص الإنجيل العبراني ووقائعه. ومثل بولس، فقد تفحص كتبة الأناجيل الكتاب المقدس العبراني لكي يعثروا على أي ذكر لمسيح قادم – سواء ملكاً أو نبيا أو كاهنا – والذي كان الرب قد اصطفاه للقيام بمهمة محددة والذي قد يعتبر (ذِكره) نبوءة مشفرة قُصِد بها عيسى. اعتقدوا أن حياة عيسى وموته كان قد تم التنبوء بهما في أربع ترنيمات، ووصل البعض في اعتقادهم لدرجة القول إنه كان هو «كلمة الله» و«حكمته».. التي نزلت إلى الأرض في هيئة بشرية.

لم يكن هذا مجرد ممارسة للعلاقات العامة. كان اليهود منذ زمن طويل قد رأوا أن جميع الخطاب الدينى كان تأويليا بشكل أساسى. كانوا قد بحثوا عن معنى جديد للنصوص القديمة أثناء الأزمات، ولم تكن المنهجية المسيحية المسماة pesher وهو لفظ عبرى يعنى حرفيا فك الشفرة، تأويلا يختلف عن ذاك الذى كانت تمارسه طوائف «قمران Qumran» أو عن «البريكولاچ bricolage» الإغريقى (استيلاد نصوص جديدة من النصوص القديمة) أو البحث الحاخاماتى التأويلى midrash. كان، قبل كل شىء، ممارسة روحية. أوضح لوقا فى قصته عن اللقاء النورانى فى طريق عمواس الأسلوب الذى كان به يخبر الأفراد تلك التجارب وكيفية تأويلهم للنصوص القديمة (لوقا ٢٤: ١٣– ٣٥). بعد ثلاثة أيام من صلب المسيح، كان اثنان من حوارييه فى طريقهما من القدس إلى قرية عمواس القريبة وقد ملأهما الحزن. التقيا بشخص غريب سألهما عن سبب حزنهما وشرحا له ما حدث ليسوع، ذلك الرجل الذى يعتقدان أنه المسيح. عاتبهما الغريب برقة سائلا إياهما إن لم يكونا يدركان أن النصوص المقدسة قد تنبأت أن المسيح «سيتألم» قبل أن «يدخل» مجده؟ ثم أخذ يشرح لهما «الرسالة» الكاملة «للأنبياء»، بدءا من موسى. فيما بعد تذكر الحواريان كيف أنهما شعرا بقلبيهما «ملتهبين» داخلهما، حينما شرح لهما «الكتب» بهذا الأسلوب. وحينما وصلا إلى وجهتيهما توسلا إلى الغريب أن يأكل معهما، ولم يدركا أنه كان هو يسوع حتى بارك الخبز، وهنا انفتحت أعينهما وتعرفا عليه. ومثل الحاخامات، كان المسيحيون يشكلون مجموعات من شخصين أو ثلاثة لفك ألغاز النصوص القديمة. وفيما كانوا يتحدثون معا كانت النصوص «تُفتح» وتأتيهم ببصيرة جديدة. قد تستغرق الاستنارة لحظة فقط – اختفى يسوع بمجرد أن تعرف

عليه تابعاه – لكن فعل الجمع بين نصوص ظلت غير مترابطة بحيث تشكل تناغماً غير متوقع كان يمد المؤمنين بحس، كشف وامضا مبهما، «بتلاقى الأضداد» (وهى تجربة انتشاء تُكشَف فيها الوحدة الموجودة خارج نطاق متضادات الحياة الأرضية) والتى كانت تسِم الخبرة بالمعبد: متضادات ظاهرية موصدة معا فى كمال Shalom «الوحدة» النورانية. كان لذلك الشخص الغريب دور حاسم. كان أتباع لوقا من اليهود والأغيار يكتشفون أنهم، ومثل آبراهام فى ممرا، حينما ينفتحون ويحاولون الوصول إلى «الآخر» يخبرون المقدس. توضح القصة أيضا كيف فهم المسيحيون الأوائل «بعث» يسوع. لم يعتقدوا فى الفكرة التبسيطية القائلة بأن جثته خرجت حية من القبر. ومنذ آنذاك، وكما أوضح بولس، فلن يعرفوا يسوع «فى اللحم»، بل سيجدونه فى بعضهم، فى النصوص المقدسة، وفى الوجبات الطقوسية التى يتناولونها معا.

كان عيسى يكتسب مكانة أسطورية ورمزية، لكن ومثل أية أسطورة، لم تكن تلك لتكتسب أى معنى سوى بالممارسة. فى رسالته إلى أهل فيلبى بآسيا الوسطى، استشهد بولس بترنيمة مسيحية مبكرة توضح أن المسيحيين ومنذ الأيام الأولى كانوا ينظرون إلى حياة يسوع على أنها عملية «تفريغ للذات Kenosis» متواضعة. فعلى الرغم من أنه، ومثل جميع البشر، كان مخلوقا فى صورة الله، إلا أنه لم يتمسك بتلك المكانة الرفيعة:

الذى إن كان فى صورة الله

لم يحسب خلسة أن يكون معادلا لله

لكنه أخلى نفسه

آخذا صورة عبد صائر فى شبه الناس

وإذا وُجد فى الهيئة كإنسان،

وضع نفسه وأطاع حتى الموت، موت الصليب

«بولس، فيلبى ٢: ٦– ٨»

وبسبب نزوله المهين هذا، رفعه الله عاليا «وأعطاه اسما فوق كل اسم» أى «السيد Kyrios» ليمجد «الله الأب». دائما ما يُستشهد بهذا النص للبرهان على أنه، ومنذ البداية، مجّد المسيحيون يسوع بصفته ابن الله المتجسد فى هيئة بشر، لكن بولس لم يكن يعطى أهل فيلبى درسا فى العقيدة المسيحية. كان قد استشهد بالترنيمة ومعها أحد التعاليم الأخلاقية: .. «فليكن فيكم هذا الفكر الذى فى المسيح أيضاً: فتمموا فرحى حتى تفتكروا فكرا واحدا ولكم محبة واحدة بنفس واحدة مفتكرين شيئاً واحدا. لا شيئاً بتحزب أو بعجبٍ، بل بتواضع حاسبين بعضكم البعض أفضل من أنفسكم».

«بولس، فيلبى ٢: ٢– ٣»

وإذا هم لم «يُفرّغوا أنفسهم» فى كل تفاصيل حياتهم، لن يفهموا أسطورة السيد المسيح. ومثل كل تعاليم الديانات الكبرى، ستظل التعاليم المسيحية دائماً «دعوة إلى الفعل miqra» والتى ستكتسب معنى فقط حينما تترجم إلى شعائر، أى برنامج تأملى أو أخلاقى.

حينما قال بولس إن المسيح هو «السيد» لم يكن يعنى أنه إله. فقد أوضحت كلمات الترنيمة أن ثمة فرقا بين «السيد kyrios» والله. وحتى على الرغم من أن بولس وكتبة الإنجيل أسموا عيسى «ابن الله»، فلم يكونوا يزعمون له أية صفة إلهية. كانت مثل تلك الفكرة لابد وأن تكون صادمة لهم.

كان «ابن الله» بالنسبة لليهود هو شخص بشرى عادى، تم الارتقاء به إلى وضع حميمى خاص مع الله ومُنح تفويضا مقدسا. كان الأنبياء، والملوك، والكهنة جميعهم يُسمَّون «أبناء الله»؛ وحقا، فقد اعتبرت الكتابات المقدسة الإسرائيليين جميعهم «أبناء الله» بهذا المعنى. أسمى يسوع، في الأناجيل، الله «أبيه»، لكنه بيَّن أيضا أن الله كان أب حوارييه أيضا. «فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة فكم بالحرى أبوكم الذى فى السماوات يهب خيرات للذين يسألونه» (إنجيل متى: ٤٦– ١١).

واليوم، دائماً ما يفترض بدهياً أن كتبة الإنجيل حينما رووا قصة الميلاد العذرى لعيسى، كانوا يزعمون أن الله، وبأسلوب ما، قد أخصب رحم أمه وجعلها تحمل فيه ومن ثم كان «ابن الله» تماما مثل ديونيسوس الذى كان ابن كبير الآلهة زيوس من امرأة عادية، لكن لم يكن لأى قارئ يهودى، آنذاك، أن يفهم القصة بهذا الأسلوب. ثمة عدد من حالات الحمل غير المعتادة فى الإنجيل العبرانى: مثلا، وُلِد اسحق وكانت أمه فى التسعين من عمرها. كانت القصص من هذا النوع تُروَى عن أشخاص استثنائيين للبرهنة على أن الطفل كان مصطفى ليكون عظيما منذ أول لحظة فى حياته.

لم يُذكر الميلاد العذرى سوى فى إنجيلىْ متى ولوقا – لا يبدو وأن كتبة الأناجيل الآخرين قد سمعوا عنه – لكنهما مع ذلك يتقصيان نسب عيسى من خلال يوسف النجار، أبيه الطبيعى، وبالأسلوب المعتاد؛ أما مرقس، فيفترض بدهيا أن يوسف النجار هو والد عيسى وأن عيسى كان له أشقاء وشقيقات عرفتهم المجموعات المسيحية المبكرة، ومثل كتبة الأناجيل الآخرين، يعتبر مرقس المسيح عيسى نبياً بشكل أساسى. يشير المتشككون الآن – ساخرين – إلى التناقضات الواضحة فى قصص طفولة المسيح. بيد أن مثل تلك

القصص لم يكن يفترض لها أن تكون سردا لأحداث واقعية، كان هدفها توضيح أن الأناجيل العبرانية قد تنبأت بمقدم المسيح، وكانت تلك القصص لا تتعدى كونها ممارسات تأويلية إبداعية. من ثم لم يشعر المراجعون النهائيون بأية غضاضة من تضمين مثل تلك القصص المتناقضة. استهل متى ولوقا إنجيليهما بقصة الحمل العذرى وولادة المسيح، التى تُعِد القارئ لرؤية كل منهما لرسالة المسيح. ومثل الإنجيل العبرانى، يسجل العهد الجديد مدىً متسعا من الرؤى والآراء، ولا يؤسس لعقيدة واحدة مترابطة راسخة. كان متى حريصا على أن يوضح أن يسوع هو مسيح الأغيار واليهود على حد سواء، من ثم، يجعل حكماء المجوس الثلاثة يقدمون من الشرق الأقصى ليسجدوا للمسيح فى المهد. أما لوقا فقد أكد دائماً على رسالة يسوع للفقراء والمهمشين، لذا، يجعل أول من يسمع «بالبشارة» مجموعة من الرعاة.

لم يكن الحمل غير المعتاد فى عيسى وولادته هى الأساليب الرئيسية بأى شكل، التى عبر بها المسيحيون الأوائل عن حسهم برابطة بالبنوة المقدسة. اعتقد بولس أن عيسى «اصطُفِى» «ابنا لله» عند بعثه. أما مرقس، فرأى أنه تلقى التكليف لدى تعميده، مثل ملوك إسرائيل القدماء الذين كان يهوه «يتبناهم» لدى تتويجهم، بل إنه حتى يستشهد بمزمور التتويج القديم. وفى مناسبة أخرى أى مناسبة اصطحاب يسوع ثلاثة من حوارييه إلى جبل مرتفع، تصوره الأناجيل على أنه «اصطُفى» هناك نبيًا: «تغيرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور» (متى ١٧: ٢): رآه الحواريون يتحدث إلى موسى وإيليا، فيما انبعث صوت سماوى، يعلن، وهو يستشهد بالترنيمة ذاتها، أن: «هذا هو ابنى الحبيب الذى به سُرِرت. له اسمعوا» (متى ١٧: ٥).

لكن، ألم يُصرّ يسوع دائماً على أن يعترف أتباعه بمكانته الإلهية – ويكاد يكون هذا شرطا لاعترافه بهم حواريين؟ نسمعه باستمرار فى الأناجيل يؤنب أتباعه على عدم «الإيمان» ويمتدح «إيمان» الأغيار الذين يفهمونه بأفضل مما يفهمه نظراؤه اليهود. كان يتطلب من الذين يتوسلون إليه كى يشفيهم أن تمتلئ قلوبهم بـ «الإيمان» قبل أن يمارس معجزاته: «فقال يسوع له إن كنت تستطيع أن تؤمن. كل شىء مستطاع للمؤمن. فللوقت صرخ الولد بدموع وقال أنا أومن يا سيد، فأعِن عدم إيمانى «مرقس ٩: ٢٣– ٢٤». لا نجد هذا الانشغال بـ «الاعتقاد» فى الموروثات الكبرى الأخرى. لماذا أولاه عيسى كل هذا الاهتمام. الإجابة البسيطة هى أنه لم يفعل. اللفظ الذى ترجم «إيمان» فى العهد الجديد هو اللفظ اليونانى pistis الذى يعنى «ثقة؛ ولاء، اضطلاع بالمهام التزام». لم يكن عيسى يطلب من الناس أن «يؤمنوا» بألوهيته، لأنه لم يدّعِ شيئاً من هذا. كان يطلب الالتزام. أراد من حوارييه أن يشاركوه فى مهمته، أن يُعطوا كل ما يملكون للفقراء، أن يطعموا الجوعى ألا تُعيقهم الروابط الأسرية، أن ينبذوا خيلاءهم، ويتخلوا عن شعورهم بأهمية أنفسهم والحس بأحقيتهم ومكانتهم، وأن يحيوا كالطيور فى الهواء والزنابق فى الحقول، ويثقوا فى الرب أبيهم. عليهم نشر بشارة «ملكوت الرب» بين الجميع فى إسرائيل – حتى بين العاهرات وجامعى الضرائب – وأن يحيوا حياة تراحم، وألا يقصروا هباتهم على المحترمين التقليديين. باستطاعة تلك «الثقة؛ الولاء، الاضطلاع، والالتزام pistis» أن تحرك الجبال. لأنى الحق أقول لكم إن من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح فى البحر ولا يشك فى قلبه بل يؤمن أن ما يقوله يكون فمهما قال يكون له» (مرقس ١١– ٢٣).

حينما ترجم القديس چيروم (٣٤٢– ٤٢٠) العهد الجديد من اليونانية إلى

اللاتينية أصبحت Pistis «الولاء l oyalt» أو Fides باللاتينية. ولما لم يكن لهذا اللفظ اللاتينى صيغة للفعل، استخدم چيروم الفعل اللاتينى credo المشتق من cordo «أُعطى قلبى». لم يفكر فى أن يستخدم لفظ opinor (أعتقد فى رأى). حينما تُرجم الإنجيل إلى الإنجليزية أصبح لفظ Pisteuo اليونانى وcredo اللاتينى» Ibelieve فى نسخة إنجيل الملك چيمس (١٦١١). لكن معنى لفظ belief قد تغير منذ آنذاك. فى اللغة الإنجليزية الوسيطة كان لفظ bileven يعنى «يُجلّ؛ يُقدّر؛ يُعزّ أى يصبح عزيزا على قلب المرء». كان ذا علاقة بالفعل الألمانى belieben (يحب to love)، و«المحبوب liebe» أو (beloved). وباللفظ اللاتينى ibidol . من ثم كان اللفظ الإنجليزى belief يعنى فى الأصل «الولاء لشخص يدين له المرء بوعد أو واجب». حينما توسل الفارس، فى عمل الشاعر تشوسر «قصص كانتربرى» إلى راعيه قائلا «accepte my belive» كان يعنى «تقبل ولائى loyalty أو إخلاصى fealty». أما فى مسرحية شكسبير All's well That Ends Well التى يحتمل أن تكون قد كتبت فى حوالى عام ١٦٠٣ قبيل نشر إنجيل الملك جيمس، يُنصح برترام، الشاب النبيل بالقول «believe not thy disdain»، أى أنه لا يجوز له أن يُكنّ الاحتقار لهيلينا الفقيرة أو يسمح له بأن يتجذر عميقا فى قلبه. بيد أنه فى القرن السابع عشر، اكتسب مفهومنا للمعرفة صبغة نظرية وبدأ لفظ «عقيدة أو إيمان belief» يستخدم لوصف مصادقة فكرية على نظرية افتراضية – غالبا مشكوك فى أمرها. كان العلماء والفلاسفة هم أول من استخدم اللفظ بهذا المعنى. أما فى السياقات الدينية فقد احتفظ اللفظ اللاتينى «credere» والإنجليزى «belief» بدلالاتهما الأصلية حتى وقت متقدم من القرن التاسع عشر.

من ثم، ربما يكون علينا مناقشة سؤال معجزات يسوع داخل هذا السياق. منذ عصر التنوير، وحينما أصبح البرهان الإمبريقى مُهمًا لإثبات أى «عقيدة – belief»، افترض الكثيرون – المسيحيون والملحدون معا – أن يسوع أتى بمعجزاته لإثبات ألوهيته. لكن «المعجزات»، فى العالم القديم، كانت أمرا عاديا، ومهما كانت لافتة أو مهمة، لم يخطر على بال أحد أنها تشير إلى أن من يقوم بها كان فوق مستوى البشر superhuman بأى شكل. كان ثمة العديد من القوى غير المرئية التى لم يكن باستطاعة علم تلك الأيام تفسيرها بدرجة أصبح معها من المنطقى الافتراض أن الأرواح تؤثر فى حياة البشر، وكان الإغريق يستشيرون الآلهة، لا الأطباء، بشكل منتظم. وحقا، مع الأخذ فى الاعتبار حال الطب قبل العصر الحديث، فربما كان هذا الخيار أكثر أمنا وفطنة. كان للبعض قدرات خاصة على التعامل مع القوى الشريرة التى اعتقد الناس أنها تتسبب فى المرض، وعُرِف عن اليهود بخاصة قدرتهم على الشفاء. فى القرن التاسع قبل الميلاد، كان النبيان إيليا، واليشع يأتيان بمعجزات تماثل معجزات عيسى، لكن لم يقل أحد أبدا إنهما إلهان.

أتى عيسى من الجليل بشمال فلسطين حيث كان ثمة موروث للرجال الأتقياء (الحسيديم) أن يأتوا بمعجزات. مثلا، فى منتصف القرن الأول قبل الميلاد، أنهت صلوات حونى Honi، راسم الدوائر، فترة جفاف قاسية، وقبيل تدمير المعبد، تمكن حنينا بن دوسا Hanina Ben Dosa من شفاء مريض دون أن يزوره على سرير مرضه. لكن لم يعتقد أحد، وبخاصة الأتقياء أنفسهم، أنهم سوى بشر عاديين. ويحتمل أن يكون عيسى قد قدم نفسه على أنه أحد هؤلاء الأتقياء (الحسيديم)، إذ يبدو أيضا أنه كان ماهرا بخاصة فى طرد الأرواح الشريرة. كان من الطبيعى لمن يعانون من الصرع أو الأمراض

العقلية والنفسية التى لا علاج لها أن يستشيروا المعوّذين وطاردى الأرواح الشريرة، الذين يحتمل لبعضهم أن يكون قد أحدث تحسنا فى الأمراض التى لها أعراض جسدية/ نفسية. لكن، ومثل غيره من المعالجين الأتقياء، أوضح عيسى أنه مَدين بمعجزاته للقوى الإلهية التى تعمل من خلاله، وأصر على أن أى أحد يثق بالله بالقدر الكافى يستطيع فعل أشياء أعظم (متى ١٧: ٢).

كما أننا نجد أن كتبة الإنجيل ملتبسون حول هذه المعجزات التى ليست ذات قيمة مركزية بالإنجيل. يخبرنا مرقس أنه، وعلى الرغم من أن شهرة تلك الأعاجيب انتشرت فى كل مكان، إلا أن يسوع كان دائما يطلب من الناس عدم التحدث عن شفائهم (مرقس ١: ٤٤، ٨: ٢٦، ٧: ٣٦). أما متّى فيميل إلى عدم إبراز المعجزات ويستخدمها فقط ليوضح أن يسوع حقق نبوءة قديمة (متى ٨: ١٧)، فى حين أن المعجزات بالنسبة للوقا أوضحت فقط أن عيسى كان «نبيا عظيما» مثل اليشع (لوقا ٧: ١١). كان كتبة الإنجيل يعلمون أنه، وبالرغم من «الآيات» و«المعجزات» فلم يكتسب عيسى أتباعا كثيرين أثناء حياته. لم تلهم المعجزات «الإيمان» فالذين شاهدوها وافقوا على أن عيسى كان «ابنا لله» لكنهم لم يكونوا على استعداد لتغيير مجرى حياتهم والالتزام التام برسالته.

بل إن الدائرة الداخلية من الحواريين أنفسهم كانت تعوزهم «الثقة، الولاء، الالتزام pistis». لم يصدر عنهم أى تعليق بإطلاقه حينما أطعم عيسى حشداً من خمسة آلاف شخص ببعض أرغفة الخبز وعدد قليل من الأسماك؛ ويخبرنا مرقس بأنه حينما رأوه يسير على الماء «بهتوا وتعجبوا فى أنفسهم جدا وإلى الغاية. لأنهم لم يفهموا بالأرغفة لأن قلوبهم كانت غليظة» (مرقس ٦: ٥١– ٥٢). يروى متّى أن الحواريين سجدوا بالفعل أمامه بعد هذه المعجزة

وهم يصيحون «بالحقيقة أنت ابن الله» (متى ١٤: ٣٣)، لكن سرعان ما كان يسوع يؤنبهم على عدم إيمانهم. ومن المحتمل أن قصص المعجزات هذه تعكس ما استخلصه الحواريون منها بعد قيامه من قبره، إذ كان بإمكانهم آنذاك، وبالنظرة الارتجاعية، أن يروا أن الرب كان يعمل من خلال عيسى ليأتى بملكوته حيث يهزم الشياطين التى تسببت فى المعاناة والموت «لكن إن كنت أنا بروح الله أُخرِج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله» (متى ١٢: ٢٨). لم يعتقدوا أن عيسى كان إلهاً، من ثم، لم يروا أن تلك المعجزات تثبت ألوهيته. لكنهم، وبعد قيامته، اقتنعوا أنه، ومثل أى شخص يتسم بالثقة والولاء والالتزام، تمكن – عيسى – من التماس قدرات dunamis الله حينما أوقف العاصفة بالبحر وسار على الماء.

أدرك الحاخامات أن المعجزات لا تثبت شيئاً. حدث أثناء سنواته الأولى بيفنه، أن اشتبك الحاخام أليعازر فى نقاش ضارٍ حول أحد الأحكام القانونية halakah المستندة إلى التوراة. حينما رفض زملاؤه القبول برأيه، طلب من الله إثباته من خلال عدد من المعجزات. تحركت شجرة خروب من مكانها، ومن نفسها، لمسافة أربعمائة ذراع، ومالت جدران المنزل الذى كانوا يدرسون به وكأنما على وشك الانهيار. لكن هذا لم يؤد إلى اقتناع الحاخامات، الذين بدوا على قدر من الاستنكار لهذا الغلوّ الإلهى. من ثم، وبعد أن شعر الحاخام أليعازر بإلحاح الموقف طلب صوتا سماويا يؤازر محاجته، وبالفعل سُمِع صوت يسألهم عن سبب معارضتهم للحاخام فى حين أن ما يقوله هو الصواب. لكن الحاخام يشوع استشهد، فى رده عليه، بكلام الرب فى التوراة «ليست فى السماء.. بل الكلمة قريبة منك جدا فى فمك وفى قلبك لتعمل بها» (تثنية: ٣٠ – ١٢: ١٤). لم تعد التوراة ملكية حصرية للسماء، لقد أنزلِت على

الأرض بجبل سيناء، والآن فهى محفوظة داخل قلب كل يهودى. من ثم، انتهى يشوع إلى أنه لا يجوز أن نُلقى بالا إلى الصوت السماوى. ويقال إن الرب حينما سمع هذا ضحك وقال إن أطفاله هزموه. «لقد بلغوا سن الرشد. وبدلا من أن يتقبلوا الآراء المنزلة عليهم من أعلى، بدءوا يفكرون لأنفسهم».

لم يكن التنزيل يعنى تقبل جميع كلمات النص المقدس حَرْفياً، ولم يكن المؤوِّل معنيا بالمقصِد الأصلى لكاتب النص. ولأن كلمة الرب لا نهائية، فإن النص يُثبت مصدره الإلهى بقابليته لإنتاج معانٍ جديدة. فى كل مرة يفتح فيها اليهودى نفسه للنص القديم، يمكن للألفاظ أن تعنى شيئا مختلفا. وبمقدم الثمانينيات والتسعينيات، كان الحاخامات قد بدأوا يقنعون أقرانهم من اليهود بأن هذه العملية – لا المسيحية – هى الطريق الحق الذى على إسرائيل اتباعه من أجل السير قدما. كان الحاخام أكيفا هو من وصل بأسلوب التأويل الإبداعى هذا إلى حد الكمال. قيل إن صيته وصل إلى السماء وأن موسى قرر النزول إلى الأرض لحضور فصوله الدراسية. جلس فى الصف الثامن خلف التلاميذ الآخرين، وشعر بالإحراج لدى اكتشافه أنه لم يستطع فهم كلمة واحدة من شرح أكيفا للتوراة التى كانت قد نُزّلت عليه على جبل سيناء. ثم قال لنفسه مثل أى والد فخور «لقد تفوق أبنائى علىَّ» وعاد آفلا إلى السماء. عبّر حاخام آخر عن هذا بإيجاز وبلاغة قائلاً: «لقد كُشِف لأكيفا وجيله عن الأمور التى لم يُكشَف عنها لموسى» اعتقد البعض أن الحاخام أكيفا قد تخطى الحدود، لكن أسلوبه لقى استحسانا لأنه أبقى على النصوص المقدسة مفتوحة. قد يشعر الباحثون المحدثون أن هذا النوع من التأويل والتفحص midrash ينتهك سلامة النص الأصلى، لكن هذا النوع من استيلاد المعانى الجديدة من النصوص القديمة «bricolage» كان أسلوبا إبداعيا للسير قدما

بالموروثات حينما كان من المتعذر العثور على مادة جديدة وكان على الناس أن يعملوا على ما لديهم من مادة.

اعتقد الحاخامات أن تنزيل سيناء لم يكن كلمة الرب النهائية إلى البشرية، لكنها كانت مجرد البداية. وهكذا، فإن التوراة ليست نصا مكتملا؛ وعلى الإبداع البشرى البحث عن مكنوناتها بنفس الأسلوب الذى يُستخرج به الدقيق من القمح ويصنع الكتان من أليافه. فالتنزيل عملية قائمة تتواصل من جيل إلى جيل. والنص الذى لا يستطيع مخاطبة الحاضر نص ميت، وعلى المؤول إحياؤه. اعتاد الحاخامات الربط بين آيات لم تكن ذات علاقة ببعضها فى الأصل على شكل «سلسلة horoz» كانت تعنى، فى شكلها الجديد، شيئا مختلفا تماما. كانوا أحيانا يقومون بتغيير لفظ فى النص، ويوجدون نوعا من التورية بإحلال حرف يغير المعنى الأصلى برمته ويخبرون تلاميذهم ألا يقرءوا النص الأصلى بل المستحدث. لم يقصدوا أن يصبح التعديل مستداما، ومثل المعلمين فى العصور القديمة. كان اهتمامهم هو بالوفاء باحتياجات مجموعة معينة من التلاميذ. وكانوا يشعروا بالإرضاء لتأويل نص بأسلوب لا علاقة له بالأصل. بحيث أصبح «نشيد الإنشاد» مثلا، وكان فى الأصل أغنية ماجنة تغنى فى الحانات ليس بها حتى ذكرُ لله، يرمز إلى حب يهوه لشعبه.

لم تكن عملية التفحص والتأويل midrash هذه عملا فرديا منعزلا؛ بل الأحرى، ومثل الحوار السقراطى، كانت جهدا مشتركا. كان الحاخامات قد أبقوا على الاحترام القديم للتواصل الشفاهى، وفى أيامهم الأولى بيفنة، لم يصوغوا موروثاتهم كتابة، بل استظهروها. كان خريجو الأكاديميا يُسمّون قرّائين fannaim»، لأنهم كانوا يتلون التوراة بصوت مرتفع ويطورون تأويلهم معا أثناء الحديث. لم يكن «بيت الدراسة» مكانا يسوده الصمت مثل المكتبات

الحديثة، بل مكانا يعج بضوضاء الحوار المرتفع. بيد أنه، ومع تدهور الوضع السياسى فى فلسطين، شعر الحاخامات أنهم بحاجة إلى سجل مكتوب لتلك النقاشات، وفيما بين عامى ١٣٥م و١٦٠م قاموا بجمع كتاب مقدس جديد كلية أسموه المشناة، وهو عبارة عن موسوعة للتعاليم والتشريعات الشفاهية وعمل الحاخامات، عن عمد، على أن تماثل بنيتها بنية المعبد، فأتت فى ستة أجزاء (sederim) تعمل كلها على دعم النصوص كأعمدة المعبد. وبتمكين التلاميذ من دراسة القوانين والشرائع التى غدت بالغة القدم يصبح بإمكانهم تبجيل الحضور المقدس Shekhinah فى عالم ما بعد المعبد.

كان الأمر مختلفا عن وضع الفريسيين الذين تمكنوا من تأسيس حياتهم على معبد متخيل فى وقت كان فيه معبد هيرود مازال يعمل بجميع إمكاناته، أما الآن، فقد أصبح المعبد كومة من الأنقاض المحترقة. راكم الحاخامات فى المشناة آلافاً من الأحكام التى تنظم حياة اليهود بكل دقائقها وتفاصيلها لمساعدتهم على أن يظلوا على وعى بالحضور Shekhinah وسطهم. لم يهتموا بـ «المعتقدات»، لكنهم ركزوا على السلوك العملى. فلو تأتَّى لليهود، جميعهم، العيش وكأنما هم كهنة فى خدمة «قدس الأقداس» فكيف يتوجب عليهم التعاطى مع الأغيار؟ كيف لأفراد كل أسرة مراعاة قوانين الطهارة؟ ما دور النساء فى المنزل بعد أن غدا معبدا؟ لم يكن الحاخامات ليستطيعوا أبدا إقناع الناس بقبول تلك المجموعة الضخمة من القوانين لو أنها لم تمنحهم قدرا مرضيا من الروحانية.

لم تتشبث المشناة بنص الإنجيل العبرانى (التوراة) لكنها تباعدت عنه بزهو ونادرا ما استشهدت بنص مقدس قديم. لم يكن ثمة شعور بالحاجة إلى مناقشة علاقتها مع موروث سيناء، لكنها افترضت متعالية أن فاعليتها

وكفاءتها ليست محل تساؤلات. استمر الحاخامات فى حبهم وإجلالهم للنصوص القديمة، لكنهم عرفوا أن العالم الذى كانت تمثله تلك النصوص قد اختفى إلى الأبد، ومثل المسيحيين فقد أخذوا منها ما كانوا بحاجة إليه، واحتفظوا بالباقى، مبجّلا، دونما استخدام. اعتقدوا أنه يجب أن يتاح للدين التحرك قدُما بحرية ولم يسمحوا للولاء للماضى بفرض قيود لا محل لها عليهم. قرروا أن التنزيل الإلهى اتخذ شكلين: التوراة المكتوبة، والتوراة الشفاهية القائمة التى تتغير من جيل إلى جيل. كلاهما مقدس، مصدره الرب، لكن الحاخامات كانوا يقدرون التوراة الشفاهية المصنوعة أكثر من أى نص مقدس مكتوب لأن هذا الموروث الحى يعكس تقلبات الفكر البشرى ويبقى على «الكلمة» الإلهية مرنة تستجيب للتغيرات. كما أن بإمكان الاعتماد المفرط على النص المكتوب أن يشجع عدم المرونة والتمسك المذعور بالماضى. اعتقدوا أن جميع استبصارات اليهود – فى الماضى والحاضر والمستقبل – كان قد تم توقعها، على المستوى الرمزى، فى تنزيل سيناء، من ثم، فحينما طوروا التوراة الشفاهية معا فى أثناء مناقشاتهم فى «بيت الدراسات» شعر الحاخامات وكأنما هم يقفون إلى جانب موسى على قمة الجبل، وأنهم يشاركون فى حديث لا ينتهى أبدا مع حكماء الماضى ومع ربهم. كانوا، بالتأكيد، متلقين لكلمة الرب «مثلهم مثل قدامى الأنبياء والآباء».

أما التلمودان فقد ابتعدا أكثر، وبثبات عن التوراة المكتوبة. تمت مراكمة التلمود الأورشليمى (يُنْسب خطأً إلى المقدس رغم أن إلى القدس خلت من المدارس الدينية بعد هدم الهيكل الثانى وأنشأ الحاخامات مدارسهم فى يفنة وطبرية وغيرهما) أثناء القرن الخامس، والتلمود البابلى الأكثر موثوقية والذى جُمِع بعد قرن من الأورشليمى، وكان كلاهما تعليقات ومناقشات على المشناة

لا التوراة المكتوبة. ومثل «العهد الجديد»، كان التلمود البابلى يعتبر مكملا للإنجيل العبراني، تنزيلا جديدا لعالم قد تغير. وكما يقرأ المسيحيون دائماً الإنجيل العبرانى من منظور العهد الجديد، فقد أخذ اليهود يدرسون الإنجيل العبرانى ومعه التلمود البابلى الذى غيّره تماما. شعر الكتبة/ المحررون بكامل الحرية فى تغيير تشريعات المشناة، وفى مقارنة ما قاله أحد الحاخامات مع ما قاله آخر بحيث يبينون الفجوات الخطيرة فى آرائهم. كما أنهم أخضعوا الإنجيل لإجراءات مثيلة، بل إنهم حتى اقترحوا ما كان يجب على كتبة الإنجيل قوله وكانوا يستبدلون أحكامهم الخاصة بالقانون الإنجيلى. لم يعط كتبة تلمود بابل أية إجابات محددة على كثير من الأسئلة التى كانت تطرح. نسمع أصواتا كثيرة معا: أبراهام، موسى، الأنبياء، الفريسيين الأوائل، حاخامات يفنه، وفى نفس الصفحة، من ثم، يبدون جميعا وأنهم فى مكانة واحدة ويشاركون فى جدل جمعى عبر قرون.

دراسة التلمود ديموقراطية ومفتوحة النهاية. إذا وجد دارس أنه لا يوجد من بين تلك المرجعيات المهيبة من يقدم حلاً يرضيه لمشكلة، عليه أن يحسمها بنفسه. من ثم، وصف بعضهم التلمود البابلى بأنه أول نص تفاعلى تشاركى. ولأن الطلبة يتعلمون اتباع أسلوب الدراسة الحاخاماتى، فإنهم يشاركون فى نفس النقاشات، ولابد لهم من الإسهام فى ذلك الحديث الذى لا ينتهى أبدا. كان ثمة مساحة على كل صفحة، فى بعض نسخ التلمود، تُترك للطالب ليكتب تعليقاته. تعلم الطالب أن لا أحد يملك القول الفصل، وأن الحقيقة دائمة التغير، وفيما أن الموروث كان بالغ الأهمية، فعلى الدارس ألا يتنازل عن حقه فى قول ما يعتقده لأنه إذا لم يضف تعليقاته إلى الكلمات المقدسة فإن الموروث سيتوقف. لا يجوز أن يقولب الخطاب الدينى فى قالب حجرى؛ فقط

تطلبت التعاليم القديمة مراجعات مستمرة. تساءل التلمود البابلى «ما التوراة؟» الإجابة «إنها تأويل التوراة».

فيما انتشرت المسيحية فى العالم الهلنستى، أتى معتنقوها الأرقى تعليما معهم باستبصارات تعليمهم الإغريقى وتوقعاته. منذ وقت مبكر نظروا إلى المسيحية بصفتها فلسفة لها مشتركات كثيرة مع المدارس الإغريقية. كان التحول إلى المسيحية يقتضى الشجاعة لأن الكنائس كانت تخضع لنوبات متقطعة، ومكثفة فى آن، من الاضطهاد بواسطة السلطات الرومانية، وحينما لم يعد المسيح، تلاشت المسيحية اليهودية. وبمطلع القرن الثانى، كانت الطرق قد افترقت بالمسيحية واليهودية الحاخاماتية. وحينما أوضح المسيحيون أنهم لم يعودوا من أتباع المعبد، نُظر إليهم على أنهم متعصبون كافرون ارتكبوا خطيئة عظمى بالانقلاب على العقيدة الأم. اتُهم المسيحيون بالإلحاد لأنهم رفضوا تبجيل الآلهة الراعية للإمبراطورية، من ثم، حاول بعضهم إثبات أن المسيحية لم تكن خزعبلات بل مدرسة فلسفية جديدة.

أحد أوائل هؤلاء التوفيقيين كان هو جوستين (١٠٠ – ١٦٠)، الذى اعتنق المسيحية بعد الوثنية. حاول الخوض فى الروخانية الرواقية والفيثاغورية لكنه وجد ضالته فى المسيحية التى نظر إليها على أنها ذروة الديانة اليهودية والفلسفة الإغريقية معاً. كان الفلاسفة أيضا يرون حكماءهم العظام – سقراط، أفلاطون، زينون، إبيقوروس – «أبناء لله»، وكان المسيحيون يستخدمون نفس التعبيرات – الكلمة، الروح، الله – التى استخدمها الرواقيون: كان القديس يوحنا قد ذكر فى التمهيد لإنجيله أن يسوع هو «كلمة» الله صارت جسدا – ذات «الكلمة» أو «الروح» «logos» التى ألهمت أفلاطون وسقراط. لم يكن ثمة مرادف يونانى للفظ العبرى Shekhinah من

ثم، لجأ المسيحيون بتزايد لاستخدام اللفظ الإغريقى logos بدلالاته المختلفة لوصف الحضور الإلهى الذى كان بوسعهم أن يخبروه، لكنه كان منفصلا جوهريا عن طبيعة الذات الإلهية. لم يكن چوستين مفكرا من الطراز الأول، لكن مُدرَكة عن المسيح بصفته «الكلمة logos» الأزلية كان حاسما للاهوتيين الذين طوروا أفكارا جنينية عن المسيحية ومن ثم عُرِفوا بكونهم «آباء» الكنيسة.

بحث الآباء ذوو التعليم الإغريقى إلى إشارات عن «الكلمة» أو «الروح» lo-gos فى كل جملة من جمل الإنجيل العبرانى. وحينما استعصت النصوص العبرية القديمة أمامهم على الفهم ووجدوا المعتقدات الإنجيلية القديمة على قدر من الغرابة، حولوها إلى قصص وكتابات رمزية (أليجورية) تقع فيها جميع الأحداث وتظهر الشخصيات فى ما أسموه بالعهد القديم تمهيداً واستباقا لما جاءت به المسيحية. كان مسيحيو أنطاكية قد فضلوا التركيز على المعنى الحرفى للكتاب المقدس واكتشاف مقصد كتبة الإنجيل وما أرادوا تعليمه، بيد أنهم لم يلقوا شعبية مؤولى الإسكندرية الذين اتبعوا خطوات فيلو والأليجوريين Allegorists (الرّمزين) الإغريق.

كان أحد ألمع هؤلاء المؤوِّلين وأكثرهم تأثيرا هو أوريجن (١٨٥ - ٢٥٤) الذى كان قد درس «الأليجورية» مع الباحثين الإغريق واليهود بالإسكندرية، والتفسير والبحث midrash مع الحاخامات بفلسطين. وفى بحثه عن معنى أعمق للنصوص المقدسة، لم ينحِّ أوريجن الأصول جانبا لكنه أخذ المعانى الواضحة لتلك النصوص بجدية كبيرة. تعلم العبرية، وتشاور مع الحاخامات بشأن الموروثات اليهودية، ودرس الحياة النباتية والحيوانية بالأرض المقدسة، وفى جهد جبار لتأسيس أفضل نص ممكن، ثبّت النص العبرى جنبا إلى جنب

مع خمس ترجمات يونانية مختلفة. لكنه اعتقد أنه من المستحيل على مسيحيً تلقى تعليما إغريقيا قراءة الإنجيل بأسلوب حرفى كلى. كيف لأحد أن يصدق أن الله قد «سار» بالفعل مع آدم فى الجنة؟ ما أهمية التعليمات المستطالة للإسرائيليين بإقامة هيكل نقّال بتيه سيناء، أهميتها للمسيحيين؟ هل كان على المسيحى أن يفهم تعليمات المسيح لحوارييه بألا يرتدوا النعال أبدا فهما حرفيًا؟ ماذا يمكننا فهمه من تلك القصة المشكوك فى صحتها عن بيع إبراهام زوجته إلى فرعون؟ كانت إجابته هى التعاطى مع تلك النصوص الصعبة بصفتها أليجورية، ذلك الشكل الأدبى الذى يصف شيئاً فى هيئة شىء آخر.

رأى أوريجن أن التناقضات وعدم الاتساق الواضح بالإنجيل تجبرنا على البحث وراء المعنى الحرفى. فقد زرع الله تلك العقبات والتقاطعات فى المعنى التاريخى ليجعلنا ننظر أعمق. فإن حالات الاستحالة والتناقضات تمثل عائقا للقارئ وتؤدى به إلى أن يرفض استكمال المسيرة فى طريق المعنى العادى، وأنه ومثل أية تدريبات فلسفية يقتضى منهجا والتزاما. ومثل أى فيلسوف، على المؤول أن يعيش حياة ورع وطهارة واعتدال وفضيلة، وعليه أن يكون مستعدا للدراسة الليل بطوله. لكنه إذا ثابر فيجد أثناء فعل قراءة تلك النصوص التى تبدو غير واعدة قراءتها بتمعن واجتهاد أنه يشعر بملامسة الروح القدس pneuma له. كان الإنجيل، بالنسبة للمسيحيين، كما كان بالنسبة للحاخامات رمزا، وكانت كلماته وقصصه مجرد صور ظاهرية لأشياء مقدسة. أما أوريجن فرأى أن التأويل هو تكريس دخول، طقس يتطلب العمل الشاق، لكنه فى النهاية يأتى بمن يمتهن دراسة هذه الطقوس إلى الحضرة المقدسة.

ومثل الإنسان، يتكون الكتاب المقدس من جسد، ونفْسٍ، وروح تتسامى

على الطبيعة الجسدية، وتتوافق تلك المكونات مع المعانى الثلاثة التى يمكن فهم النص المقدس بها. على الدارس المبتدئ mystes الإلمام بـ «جسد» النص المقدس، أى معناه الحرفى، قبل أن يتمكن من إحراز تقدم إلى ما هو أسمى. ثم يصبح معدا للمعنى الأخلاقى، وهو تأويل يمثل «النفس»، أى قوى العقل والقلب الطبيعية: تمدنا تلك بالإرشاد الأخلاقى، لكنها تخضع إلى حد كبير للفطنة. أما المتمهن الذى يثابر فى تقدمه حتى نهاية تكريسه، فيتعرف على الروحانى، المعنى الأليجورى حينما يلتقى «الكلمة» «الروح» التى تكمن مختبئة فى الجسد الأرضى للصفحة المقدسة.

لكن لن يصبح ذلك ممكنا بدون التدريبات الروحية التى تنقل المتمهن إلى إطار عقلى مختلف. فى البداية، تبدو تأويلات أوريجن للقارئ الحديث متوترة بعيدة الاحتمال، لأنه يقرأ فى تلك النصوص أشياء غير موجودة بها، لكن لم يكن أوريجن يطلب من قارئه «الاعتقاد» فى استنتاجاته. فاستبصاراته، ومثل أية نظرية فلسفية، لم تكن لتعنى شيئا إلا إذا اضطلع تلميذه بنفس التدريبات الروحية كأستاذه. كانت تعليقاته وتفسيراته «دعوة للفعل miqra». كان على القراء القيام بالخطوة التالية بأنفسهم، يتمعنوا فى النص بنفس زخم أوريجن، حتى يصبحوا هم أيضا قادرين على تلقى مبادئ الحقيقة. وبدون ساعات طويلة تُقْضى فى التمعن theoria، تغدو تأويلات أوريجن غير مفهومة وغير معقولة معا.

أصبح نهج أوريجن لقراءة الكتاب المقدس وفقا للمعانى الحرفية، الأخلاقية والروحانية معياريا فى أنحاء العالم المسيحى. قدم الراهب الإصلاحى جون كسيانوس (٣٦٠- ٤٣٥) هذا النمط التأويلى إلى أوروبا الغربية وأضاف معنى رابعاً: البعد القياسى analogical، الذى يصف البعد الأخروى لأى

نص بعينه.

ظل هذا النهج الرباعى قائما فى الغرب حتى حركة الإصلاح الدينى. نقله الوعاظ من على المنابر إلى عامة الشعب، واستخدمه الرهبان حينما كانوا يتمعنون فى النص الإنجيلى. كان الفرد دائماً يبدأ بالقراءة الحرفية لكنه كان يتقدم أعلى درجات سلم المعانى الأخلاقية، الأليجورية، والقياسية، فى «صعود» رمزى من مستويات الوجود الجسدى إلى المستويات الروحانية. وحتى بداية العصر الحديث لم يفكر أحد فى قصر انتباهه على القراءة الحرفية لمعنى النص المقدس الواضح. وحينما بدأ المسيحيون يُصرون على المعنى الحرفى لكل لفظ فى الإنجيل فى نهاية القرن التاسع عشر، وجده الكثيرون غريبا، غير مصدق، ومتناقضا كما كان أوريجن قد وصفه.

اعتقد آباء الكنيسة أن الكتاب المقدس «سر»، لا لأنه كان يتضمن تعاليم ومبادئ لا يمكن فهمها، بل لأنه كان يوجه انتباه المسيحيين إلى مستوى خفى للحقيقة. كان الكتاب المقدس «سرا» أيضا لأن تأويله كان عملية روحية تتقدم، ومثل أى تكريس، مرحلة مرحلة حتى الوصول إلى لحظة الاستنارة النهائية. لا أحد يستطيع أن يأمل فى فهمه بدون إخضاع عقله وروحه لتدريبات تنسكية منتظمة. فالكتاب المقدس ليس مجرد نص، بل «نشاطا»، القراءة وحدها ليست كافية، لكن علينا ممارسته. كان المتخصصون والعامة عادة يقرأونه وسط مشهد طقوسى يفصله عن أساليب التفكير العلمانية. وكما نعرف من رسائل بولس، فقد طوّر المسيحيون الأُول طقوسهم الخاصة. كان التعميد، وتناول القربان المقدس (إعادة تمثيل عشاء يسوع الأخير مع حوارييه) شعائر «أسرار»، لا لأنه لم يكن بوسع العقل الطبيعى فهمها، بل لأنها كانت طقوس تكريس يُعلَّم خلالها جمهور المصلين النظر تحت الإيماءات الرمزية من أجل

العثور على الجوهر المقدس بالداخل ومن ثم يخبرون «تغيرا فى التفكير».

لدينا فى محاضرات سيريل، أسقف القدس (٣١٥- ٣٨٦) بعض أولى التقارير عن الأسلوب المتبع فى تعريف المتقدمين بطقوس الكنيسة وتعاليمها. كانت مراسيم التعميد فى إبراشية سيريل تحدث فى الساعات الأولى من صباح عيد القيامة بكنيسة القيامة. كان معتنقو المسيحية الجدد، وخلال أسابيع الصوم الكبير الستة، يمرون بفترة إعداد مكثفة. كان عليهم الصيام، حضور صلوات المساء، الدعاء والصلاة، وتلقى تعاليم الكنيسة العامة ke-rygma، أو رسالة الكتاب المقدس الواقعية الأساسية. لم يكن مطلوبا منهم الاعتقاد فى أى شىء مقدما. لم يكونوا يتعلمون حقائق المسيحية الأعمق سوى بعد طقس التعميد لأن تلك التعاليم كانت تكتسب المعنى فقط بعد تجربة هذا الطقس التحويلية.

ومثل أية مدرسة فلسفية، كانت النظرية ثانوية مقارنة بالطقوس والتدريبات الروحانية. ومثل أية أسطورة، كانت تعاليم المسيحية تنُقل فقط من خلال مشهد شعائرى إلى الأشخاص الذين أُعِدُّوا جيدا وكانوا يتوقون إلى التحول من خلال تلك التعاليم. ومثل استبصارات طقوس التكريس والبدء، كان لابد وأن تبدو المبادئ والتعاليم التى تُكشف فى نهاية العملية الطقوسية تافهة وعبثية للأغراب. كان يطلب من المسيحيين، فقط بعد أن يمروا بتلك العملية التحويلية تلاوة «قانون الإيمان المسيحى» وهو إعلان، لا عن «عقيدة» بل عن التزام تجاه الله الذى أصبح حقيقة واقعية فى حياتهم نتيجة لطقس المرور والتكريس هذا.

من ثم، لم تكن محاضرات سيريل تفسيرات عقائدية ميتافيزيقية تتطلب «الاعتقاد» الساذج «بل تعليما لأسرار الدين mystagogy» وقد ظل هذا هو

المصطلح الفنى الذى مكن المبتدئين فى طقوس الأسرار الإغريقية من «إدماج ذواتهم فى الرموز المقدسة، والتخلى عن هوياتهم، والتوحد مع الآلهة، وخبرة المس المقدس». حينما كانت المراسم تبدأ، كان المتقدمون للتعميد يصطفون خارج الكنيسة ويتوجهون غربا باتجاه مصر، مملكة الغروب والموت. وكخطوة أولى فى إعادة تمثيل تحرير الإسرائيليين من العبودية، كانوا يلعنون الشيطان وينبذونه ثم «يُستَادرون» فى «تحول» باتجاه الشرق – باتجاه الفجر، الحياة الجديدة، حالة البراءة البشرية البدئية بالجنة. وفيما كان موكبهم يمضى إلى داخل الكنيسة، كانوا يتخلصون من ملابسهم، أى، على المستوى الرمزى من ذواتهم القديمة، ويقفون عرايا مثل آدم وحواء قبل السقوط. كان هذا هو عبورهم للبحر، وانغمارهم (تعميدهم) الرمزى فى موت المسيح الذى كانت مقبرته تقع على بعد عدة ياردات منهم. وفى كل مرة كانوا يغمرون فيها تحت الماء كان الكاهن يسألهم «ألديكم التزام وولاء وثقه pistis» فى الأب – فى الابن – وفى الروح القدس، وفى كل مرة كان المبتدئ يصيح: «أمنحه قلبى وولائى والتزامى Pisteuo». وحينما كانوا يخرجون من بركة التعميد كانوا يصبحون «مسيحيين» (أى: من تم مسحهم بالزيت المقدس أو المياه المقدسة). كانوا يرتدون ثيابا بيضاء ترمز إلى الهوية الجديدة، ويتلقون «سر القربان المقدس» للمرة الأولى، ومثل المسيح بعد تعميده يصبحون، طقوسيا، «أبناء الله». وفى العالم الغربى المتحدث باللاتينية، كان معتنقو المسيحية الجدد، يصيحون لدى غمرهم بالماء «أُعطى قلبى Credo وكان هذا التعبير آنذاك لا يدل على الاعتقاد بل على الثقة والالتزام والولاء. ولم يكن هذا موافقة عقلية على تعاليم الكنيسة الإجبارية التى لم يكونوا يتعلمونها حتى الأسبوع التالى. لم يكن هؤلاء المبتدئون يَنصُّون ببساطة على «اعتقاد» فى قائمة من الفرضيات

غير المثبتة إمبريقيا. كانت صيحة أمنحه قلبى.. Pisteuo» و«أعطى قلبى credo» تماثل «إننى أعد (أفعل)» فى طقوس الزواج بالكنيسة.

كانت الطقوس المعدّة بعناية تثير حالة من الانتشاء الروحانى ekstasis أو «الخطو خارج» أساليب التفكير المعتادة. وكما بين ثيودور أسقف موپسيوستيا فى سيليسيا (من عام ٣٩٢ إلى عام ٤٢٨)، لمن كان يوشك على تعميدهم:

«حينما تقولون» أنا ألزم نفسى pisteuo» أمام الله فإنكم توضحون أنكم ستظلون ثابتين دائما معه، أنكم لن تفصلوا أنفسكم عنه أبدا وأنكم ستعتقدون أن كونكم معه، وتعيشون معه هو أسمى من أى شىء آخر ويجب عليكم التصرف بتناغم مع وصاياه».

لم يكن لـ «الاعتقاد» بمعنانا الحديث دخل بهذا. وعلى الرغم من أن ثيودور كان من قادة الدعاة إلى التفسير الحرفى الذى كان يمارس فى أنطاكية، إلا أنه لم يتطلب من معتنقى الدين الجدد أن «يعتقدوا» فى أية مبادئ «مبهمة». كان الإيمان شأنا من الالتزام المحض والعيش العملى.

كان هذا ينطبق أيضا على الديانة التوحيدية التالية التى لم تظهر حتى مطلع القرن السابع. فى عام ٦١٠ بدأ محمد بن عبدالله (٥٧٠- ٦٣٢ تقريبا)، وكان تاجرا بمدينة مكة التجارية المزدهرة، يتلقى الوحى الذى اعتقد أنه من الله رب اليهود والنصارى. جُمعت تلك الرسائل الإلهية معا فى كتاب مقدس يعرف بالقرآن، الذى تم الانتهاء من تجميع نصوصه بعد عشرين عاما فقط من وفاة الرسول. أصبحت ديانة القرآن تعرف بالإسلام، وهى لفظ يعنى «الاستسلام» لله، وكان هذا الدين يقوم على نفس المبادئ الأساسية للديانتين التوحيديتين الأخريين.

لا يهتم القرآن كثيرا بـ «الاعتقاد»، والتنظير وحقا فهذا مفهوم غريب على الإسلام. يتم التعاطى مع الجدالات الفقهية التى ينتج عنها صياغات عقائدية مبهمة تستعصى على الفهم بصفتها «ظنا»، أى تكهنات مغرقة فى الذاتية عن أشياء لا يستطيع أحد إثباتها أو نفيها، لكنها تتسبب فى الصراعات والانقسامات الطائفية الغبية، ومثل العقائد والفلسفات الأخرى، كان الإسلام أسلوبا للحياة (ديناً). لم تكن رسالة القرآن الجوهرية هى المبادئ العقائدية، بل دعوات أخلاقية للتراحم الذى يعبِّر عنه عملياً. مثلا، من الخطأ مراكمة الثروة الفردية الخاصة، ومن الخير أن نشارك فى الثروة مع الآخرين بأسلوب منصف من أجل إقامة مجتمع عادل يُعَامَل فيه الفقراء والمحتاجون باحترام وكرامة. أركان الإسلام الخمسة دعوة للعمل المكرس miqra: الصلاة، الصيام، إيتاء الزكاة والحج، وينطبق هذا أيضا على الركن الأول وهو شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله: ليست الشهادة «قانونا عقائديا» بالمعنى الذى يفهمه الغرب الحديث، إذ «يشهد» من ينطق بالشهادة أن تكون لمراعاة الله أولوية فى كل فعل من أفعاله طوال حياته، ولا إله غيره– تتضمن تلك الآلهة الأخرى الطموحات السياسية، المادية، الاقتصادية والشخصية – ولا يجوز أن تعلو متطلبات أى منها على متطلبات الالتزام أمام الله وحده. والإيمان فى الإسلام، ووفقاً للقرآن، أشياء يفعلها الناس: يتقاسمون ثرواتهم، يعملون الصالحات، ويسجدون لله فى صلاواتهم التى تحمل فى طياتها «تفريغ النفس kenosis» من شهواتها وإنكارا للذات.

يُسمّى القرآن من حاربوا الإسلام حينما بدأ محمد دعوته فى مكة الكافرين. وترجمة اللفظ بالإنجليزية مضللة: فهو لا يعنى «غير المؤمنين» أو «الملحدين»، إذ إن جذر الكلمة «كفر» يعنى «جَحَدَ»، أى الرفض الفظ المستكبر

لشيء يقدَّم بهدف الرحمة والتعاطف. لم يكن لاهوت الكافرين خاطئاً فقد اعتقدوا جميعا أن الله خلق العالم، مثلا: «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولُنَّ الله فأنَّى يؤفكون. الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم ولئن سألتهم من نزَّل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولُنَّ الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون» (العنكبوت: ٦١: ٦٣).

لم يُدن القرآن هؤلاء لعدم اعتقادهم في وجود الله بل لسلوكهم الفظ العدواني تجاه الآخرين، استكبارهم، شعورهم بالأهمية المفرطة، شوفينيتهم وتعصبهم، وعدم قدرتهم على تقبل النقد. لا يأخذ الكافرون أية فكرة جديدة عليهم على محمل الجد، لأنهم يعتقدون أنهم على علم بكل شيء. من ثم، فهم يهزءون بالقرآن ويستعرضون مهاراتهم: «وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون» (الأنبياء: ٣٥). وفوق كل شيء فهم سادرون في جاهليتهم: مفرطو الحساسية لما يعتقدون أنه شرفهم ومكانتهم، لهم نزعة انتقامية تدميرية، أفظاظ حانقون وبالمقابل يأمر الله المسلمين بالحلم والصبر ومعاملة الكافرين بالحسنى، فالله وحده هو المنتقم الجبار. يقول الله عن عباده «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما» (الفرقان: ٦٢).

لم يكن المطلوب أبدا قراءة نصوص القرآن قراءة حرفية تبسيطة فإن كل سورة، جملة، أو سطر في القرآن هي آيات» (علامات، رموز، أمثولات) لأننا لا نستطيع الحديث عن الله سوى على سبيل القياس. لا يُقصد بالآيات العظيمة عن الخلق والحساب ويوم الدين فرْض «اعتقاد» بل هي دعوات للفعل والعمل، وواجب المسلمين هو ترجمة تلك المبادئ إلى سلوك عملي. مثلا، فالآيات التي

obeikandl.com

تتحدث عن الآخرة والحساب حيث لا تجدى الثروة والمجد الدنيوى، لابد وأن تجعل المسلمين يتفحصون سلوكهم الآن وهنا: هل يعاملون المحتاجين بمحبة وتعاطف وإنصاف؟ عليهم محاكاة كرم الله وعطاياه. فقد خلق لنا الطيبات ومنحنا العطايا والنعيم فى هذا العالم بكرم وسخاء. كان الدين أساسا يقوم على التزكّى: أى عمل الصالحات والعطاء والطُهر والكرم. فإن المسلمين برعايتهم للفقراء وتراحمهم معهم، وتحرير عبيدهم، وأداء أعمال الخير البسيطة على أساس يومى، بل وفى كل لحظة، يكتسبون أرواحا مسئولة عطوفة ويطهرون أنفسهم من الاستكبار والأنانية وبنمذجتهم سلوكهم على سلوك خالقهم، سيصل المؤمنون إلى النقاء والسمو الروحى.

لم ينظر المسلمون الأوائل إلى الإسلام على أنه دين جديد قصرى، بل على أنه استمرار لعقيدة «أهل الكتاب» اليهود والنصارى. فى آيتين تستدعيان منا التوقف، يذكر القرآن «قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين» (آل عمران: ٨٤– ٨٥). فالقرآن هو توكيد للكتب المقدسة السابقة. لا يجوز إجبار أحد على اعتناق الإسلام لأن جميع العقائد المنزلة هى ديانات، لم يشأ الله أن ينتمى البشر جميعهم إلى أمة واحدة وعقيدة واحدة: «وأنزلنا إليك الكتب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون» (المائدة: ٤٨).

والله ليس ملكية قصرية لأى موروث، لا يمكن حصر النور الإلهى فى مصباح واحد، وهو لا ينتمى إلى الشرق أو إلى الغرب بل نوره يضيء البشر جميعا: «الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دُرى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تَمسسه نار نورُ على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم» (النور: ٣٥)، يأمر القرآن المسلمين بحسن معاملة أهل الكتاب وبألا يدخلوا معهم فى جدالات خلافية لا طائل من ورائها «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأُنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون» (العنكبوت: ٤٦).

يتطلب كل هذا جهدا لا يتوقف. ولا يعني الجهاد الحرب المقدسة كما يقول الغرب، بل «الجهد» و«النضال»، لأنه من بالغ الصعوبة تفعيل إرادة الله فى عالم معيب بدرجة مأساوية. على المسلمين بذل الجهد بوعى وعزيمة على جميع الجبهات - الفكرية، الاجتماعية، الاقتصادية، الأخلاقية، الروحية والسياسية. وأحيانا، يكون عليهم أن يقاتلوا، مثلما فُرِض القتال على محمد حينما أقسم كفار مكة على إبادة جماعة المسلمين بيد أن الحرب العدوانية محرمة، والمبرر الوحيد للحرب هو الدفاع عن النفس: «أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرِجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربُّنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدِّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز» (الحج: ٣٩- ٤٠). لم تكن الحرب أبدا هى واجب المسلم الأول. ويُروى عن رسول الله أنه قال «لقد عدنا من الجهاد الأصغر (الحرب) إلى الجهاد

الأكبر»، أى إلى النضال الأكثر أهمية بكثير لإصلاح المجتمع والنفس. وفى النهاية، وحينما تحولت الحرب بمكة لصالح المسلمين، تبنى الرسول سياسة اللاعنف. وحينما فتحت مكة أبوابها للمسلمين، لم يُجبَر أحد على الدخول فى الإسلام، ولم يحاول الرسول إقامة دولة إسلامية قصرية هناك.

ومثل الموروثات الدينية الأخرى، كان للإسلام أن يتغير ويتطور. أقام المسلمون إمبراطورية كبرى امتدت من جبال البرانس إلى الهيمالايا، لكن وعملا بالمبادئ القرآنية، لم يُجبر أحد على دخول الإسلام وحقا، ففى القرون الأولى بعد وفاة الرسول، كان البعض لا يشجع اعتناق الشعوب الأخرى الإسلام، وذلك لاعتقادهم أن الإسلام هو دين للعرب، أحفاد إسماعيل، مثلما أن اليهودية دين لنسل اسحق والمسيحية لأتباع الإنجيل.

من ثم، فقد كان الإيمان شأن بصيرة عملية والتزام نشط. لم يكن له علاقة كبيرة بالعقائد المجردة، والتكهنات الفقهية واللاهوتية. ظلت اليهودية والإسلام ديانتين للممارسات، تدعوان إلى الممارسات العملية القويمة لا إلى مجموعة من المعتقدات القويمة لا تتغير orthodoxy. بيد أنه فى مطلع القرن الرابع بدأت المسيحية تتحرك باتجاه على قدر من الاختلاف وطورت انشغالا بصبحة المبادئ والمعتقدات الأمر الذى سيصبح كعب أخيل (نقطة ضعف) بالنسبة لها. لكنه، وحتى فيما بدأ بعض المسيحيين يتجادلون برطانة حول التعريفات العقائدية الدوجماتية طور آخرون – ربما كرد فعل على هذا – روحانية الصمت وعدم إمكان معرفة ما لا سبيل إلى معرفته، وكان هذا توجها أصبح سمة على نفس الدرجة من الأهمية والتأثير.